الصراع الحضاري بين الشرق والغرب

في الرواية الإفريقية رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " "أنموذجا "

د.أروى محمد ربيع

dr.arwarabee@yahoo.com

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية /جامعة جرش –الأردن–

تاريخ الإرسال:29-01-2020 تاريخ القبول :23-06-2020 تاريخ النشر:30-06-2020

ملخص البحث :

الصراع الحضاري بين الشعوب والثقافات من الإشكاليات التي سببت شرخاً في كثير من العادات والتقاليد التي لم تسلم منها ثقافتنا العربية ؛ لذا ظهر مجموعة من الأدباء والنقاد العرب الذين سطّروا بأقلامهم ، ورسخوا بأفكارهم أهمية الحضارة والحفاظ عليها .

فظهر الطيب الصالح من القارة الأفريقية التي يعتز بها ، ليؤكد انتماءه وحرصه في الدفاعِ عن حضارته وثقافته ، من خلال فضائه الروائي في روايته العالمية **" موسم الهجرة الى الشمال "** التي تتميز بكثافتها وغزارة دلالاتها ، ورموزها المحيرة أحياناً ، ولغتها الجامعة بين الفصحى ،والفصحى الدارجة ،والعاميّة السودانيّة .

فهي رواية تتعلق بالتاريخ والاجتماع والعادات والتقاليد ، وكثير من العلاقات المختلفة ، التي حاول الكاتب من خلالها أن يجسد الصراع الحضاري بين الغرب المستعمر والشرق المضطهد ، و بيان أثر ذلك على الجوانب الثقافيّة و النفسيّة والاجتماعيّة من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية :

- **الأبعاد الإيديولوجية في رواية موسم الهجرة إلى الشمال .**
- **التقنيات السردية التي برز من خلالها الصراع الحضاري .**
- **أثر الصراع الحضاري على شخصيّة الإنسان العربي لمواجهة واقعه الراهن ، وتطويره للأفضل.**

وغيرها من التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها وفق المنهج الاستقرائي التحليلي .

كلمات مفتاحية : الصراع ، الحضارة ، الهجرة ، الشخصية ، الشرق ، الغرب ، الطيب صالح.

Civilizational Conflict between East and West in African Novel "Season of Migration to the North" as a Model

Dr. Arwa Mohammad Rabee

Associate Professor, Department of Arabic Language, Jerash University

dr.arwarabee@yahoo.om

+096778450662

Abstract

The civilizational conflict between peoples and cultures is one of the problems that have caused a rift in many customs and traditions that our Arab culture has not escaped from. So a group of Arab writers and critics has emerged; they have written with their pens, and cemented with their ideas the importance of civilization and means to preserve it.

Tayeb Salihcame from the African continent that he is proud of, to affirm his affiliation and keenness in defending his civilization and culture, through his narrative space in his global novel "***Season of Migration to the North***", which is characterized by its intensity and abundance of its connotations, its sometimes bewildering symbols, and its language that gathers classical, standard and Sudanese slang.

It is a novel related to history, sociology, customs and traditions, and many different relationships, through which the writer tried to embody the civilizational conflict between the colonial West and the oppressed East, and to explain the impact of this on the cultural, psychological and social aspects by answering the following issues:

-The ideological dimensions in the novel, ***Season of Migration to the North*.**

- The narrative techniques through which civilization conflict has emerged.

- The impact of civilization conflict on the personality of the Arabsto face their current reality, and develop it for the better.

We will try to discussother issues in accordance with the analytical inductive approach.

Keywords: conflict, civilization, migration, personality, East, West, Tayeb Salih

إن رواية **" موسم الهجرة الى الشمال "** رواية عربية حديثة تختلف عن الكثير من الروايات بكثافتها وغزارة دلالتها ورموزها المحيرة ، فهي رواية تتعلق بالتاريخ والاجتماع والعادات والتقاليد وكثير من العلاقات الحميمة ، التي حاول الطيب الصالح ان يجسد من خلالها الصراع الحضاري بين الغرب المستعمر والشرق المضطهد، ولعل هذه القضية من أهم القضايا الفكرية التي تجعل للرواية مكاناً خاصاً وموقعاً متميزاً في الرواية العربية .

وهذه القضية هي نفسها التي جاءت في رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم ، ورواية (قنديل أم هاشم) ليحي حقي ، ورواية (الحي اللاتيني) لسهيل ادريس .....

إلاّ أن الطيب الصالح تميز في طرحه لهذه القضية منذ العتبة النصية الأولى للرواية بالعنوان **" موسم الهجرة الى الشمال "**إذ يُلمح بالمعاني دون أن يُفصح عنها ، فتظل مرتبطة بنسيجها الداخلي رغم التباعد الظاهري الذي يبدو أحياناً في بعض جوانبها . فالمناطق الجنوبية غالباً تكون أقل حضارة لذا يتجه الفرد نحو الشمال ، والهجرة هنا محددة الوجهه فهي هجرة الى المناطق الشمالية التي تتصف بالتقدم والتحضر وتوفير ظروف ملائمة للحياة بشكل أفضل.

كما تتميز الرواية بكونها ركزت على اللون عند الشعب الأفريقي (اللون الأسود) ،وكأن الطيب الصالح سوداني الأصل ، ركز على قضية العرق ليظهر من خلال اللون بعداً جديداً للتجربة الإنسانية ، ممزوجاً بنكهة خاصة من المرارة والإهانة والدونية .

فالرواية جاءت لتجسد العلاقات الإنسانية عبر البيئتين العربية والغربية ، مظهرةً أهمية الجانب الحضاري الذي يُبرز الكثير من التناقضات القائمة على الكثير من الاختلافات .....

وعليه فإن رواية **" موسم الهجرة إلى الشمال "**تبرز الكثير من الأبعاد الإيديولوجية المتضمنة المعنى العام للرواية بشكل أساسي ، خاصةً وأننا في هذا الوقت بالتحديد نعاني كأمة عربية من موجة اللاجئين والمهاجرين العرب إلى الدول المجاورة ، أو إلى الدول الأوروبية .

رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " عندما كتبت كانت المجتمعات العربية أيضاً تعاني من بقايا آثار الاستعمار الغربي ، وتعمل على محاولة التخلص من آثاره المتجذرة في حضارتنا العربية ، لذا فتحت الرواية آفاقاً جديدة ، وطرحت أسئلة عديدة ، وركزت على الأبعاد الإيديولوجية التي تعتبر نسقاً من المعتقدات والمفاهيم التي تسعى الى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة ، من خلال منطق يوجه ويبسط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات .

فهي نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والأساطير والحِكَم التي تؤمن بها جماعة معينة ، أو مجتمع ما ،وتعكس مصالحها ، وتبررها . فهي منظومة من الأفكار المرتبطة اجتماعياً بمجموعة اقتصادية أو سياسية أو عرقيّة ، تعبّر عن المصالح الواعية لهذه المجموعة على شكل نزعة مضادة للتاريخ ، ومقاومة للتغير ، ومفككة للبنيات الكلية (1)

فالإيديولوجية في الأدب تبحث عن علاقة مضمون العمل الأدبي بالدلالات التي يحملها ، ومدى احالتها لوعي صاحبها ، فهي تظهر في الموقف ، وفي كيفية التعبير عنه ، كما تتجسد في المواضيع والرسائل التي يريد الأديب تمثيلها لتحرك الفكر ، وترسم المستقبل ، فهي تمثل رؤية الأديب للعالم التي يضمرها داخل كل نص أدبي .(2)

لا بل أبعد من ذلك فهي تظهر في طريقة استعمل اللغة ، وتعكس الرؤية الفنية والجماليّة التي ينطلق منها الأديب ، فتصبح اللغة هي المظهر الأصلي للإيديولوجية ، إيديولوجية الفرد ، وإيدلولوجية المجتمع ، " فالكلمة – كما يقول باختين – هي الظاهرة الإيديولوجية الأمثل "(3) وعليه فإن العلاقة بين الأدب والإيديولوجية علاقة مُوحية ، وملهمة وذات معنى عميق ، تتطلب من المتلقي تحليلاً دقيقاً لفهم العلاقات

والثيمات داخل النص الأدبي ، لأن النص نسيج من المعاني والإدراكات والاستجابات الملازمة له في إنتاجه التخييلي للواقع ، وهذه هي الايديولوجية.

فالرواية تكتسب معاني جديدة، وتمنح القارئ فرصة لرؤية الأحداث بطريقة مدهشة، من خلال شخصياتها الرئيسية ، التي مثلت كل شخصية منها رؤية مختلفة .

تبدأ رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " بعودة الراوي إلى قريته الصغيرة الواقعة على منحنى النيل في السودان بعد غيابه في لندن فترة سبع سنوات قضاها في الدراسة ، بقوله : " عدتُ إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة ....."(4). موظفاً الموروث القصصي الشعبي ، حيث توجه إلى المتلقي بعبارة " يا سادتي وكأنه يستفيد من طريقة " ألف ليلة وليلة " التي تعتمد على السّرد القصصي للحكاية والتي يتولد منها الحكايات، من خلال فعل الإخبار الذي يبدأ بتشكيل العلاقات السّردية داخل إطار الأهل والحنين إليهم طوال فترة الغربة، وكأنهم الدائرة الأولى التي تمثل التجذر والتأصل بقوله : " ذاك دفء الحياة في العشيرة ، فقدته زماناً في بلاد تموت من البرد حيتانها "(5). فكأنه يرسم صورة مناقضة تماماً لواقع الغربة التي عاشها في لندن مدينة الضباب ، فهو هنا بين أهله وعشيرته شعر بالطمأنينة التي افتقدها في الغربة ، ليشعر بوجوده وذاته التي كادت أن تضيع في عالم الصقيع .....

كما تظهر أنا المتكلم، أو أنا الراوي في كثير من الأفعال التي يوظفها في سرده مثل: " أسمع ، أرى ....." ليؤكد علاقته الوطيدة بالأهل ، والقرية ، والأرض ، فهي علاقة إيجابية تربط الذات بالجذور ، بقوله:" إنني لست ريشة في مهب الريح ولكني مثل تلك النخلة ، مخلوق له أصل ، له جذور ، له هدف " (6). وكأنه هنا يؤكد على أن الإنسان العربي الإفريقي إنسان ذو هدف قادر على العطاء كغيره ، ويوظف الراوي عبارة أخرى تؤكد نفس الفكرة وهي : " لا لست أنا الحجر يُلقى في الماء ، ولكنني البذرة تبذر في الحقل " (7). فهو إذاً انسان فاعل .

يؤكد الراوي على هذه العلاقة من جديد بحضور أهل القرية المرحبين به بعد عودته من الغربة، فرجال أهل القرية الطيبون كعادتهم يرحبون ويستقبلون ، وهو يعرفهم جميعاً باستثناء ذلك الرجل المربوع القامة ، خمسيني العمر ، وسيم الوجه ، وكثيف الشعر الذي لم يعرفه الراوي ، وكأنه رجلٌ غريب عن القرية ، لذا أثار اهتمام الراوي وسألهم عنه ، هل هو أحد المغتربين من أبناء البلد عاد؟

لكن الرد يأتي سريعاً بأنه " غريبٌ جاء منذ خمسة أعوام، اشترى مزرعة، وبنى بيتاً، وتزوج حسنة بنت محمود ..... رجل في حاله ، لا يعلمون عنه الكثير"(8).

وهنا تبدأ المفارقة ، شخص غريب ، مليء بالألغاز المستغلقة ، جاء من الخرطوم بعد عمله في التجارة، بحثاً عن الهدوء والاستقرار ، أصبح عضو لجنة المشروع الزراعي في القرية ، الجميع يحترمونه ، لكنهم لايعلمون عنه شيئاً سوى ما تقدم .

يبدأ الحوار بين أهل القرية والراوي حول الغرب أو الآخر ، وذلك من خلال طرح العديد من الأسئلة المفصليّة ، هل هم مثلنا أم يختلفون عنا ؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة ؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء ؟ هل النساء سافرات ويرقصن علانية مع الرجال ؟ هل الرجل يعيش مع المرأة بالحرام ؟ ..... ولكنهم يتفاجئون بإجابة الراوي وقوله :" إذا استثنينا فوارق ضئيلة ، هم مثلنا تماماً ..... وهم عموماً قوم طيبون " (9).

وهذا جواب عام يؤكد الخصائص الإنسانية والبشرية العامة مع وجود فوارق اعتبرها ضئيلة ، ولكنني أعتقد أنه قصد بها الجانب الأخلاقي والفكري لديهم .

يبدأ الراوي الحديث مع جدّه ويشعربالأمان ، وكأن الماضي هو الذي يؤكد ارتباط الذات بالأرض والأصالة والتاريخ ، فالجد يتحدث عن أحداث وقعت قبل خمسين عاماً فهو لسان التاريخ المتجذر ، لذا يؤكد الراوي بأن جدّه هو رمز آخر للتراث ، وأن عودة الراوي إلى قريته ما هي إلا عودة الحاضر إلى الماضي ليكمل رحلة المستقبل ، يقول : " نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوروبي فلاحون فقراء ، ولكنني حين أعانق جدي أحس بالغنى ".

وهذا فِكر يتعلق بالجانب الحضاري العربي لا يمكن ابرازه إلّا من خلال البيئة الريفية السودانية التي تمثل المجتمعات العربية بعامة ، وما يقابلها من فكر وتطّور حضاري في أحياء لندن التي تمثل المجتمع الغربي المتطور .

وهنا تتطور الأحداث ليتطور معها الصّراع الحضاري بين الشرق والغرب ، متمثلاً بهجرة ابن القرية إلى المدينة المتحضرة والمتقدمة تكنولوجياً ، فهو القادم من حرارة خط الاستواء إلى بلاد الضباب والصقيع ،

فينبهر بما فيها ، ويشعر باضطراب نتيجة التناقض الكبير بين فضائي القرية البسيطة والمدينة المُبهرة التي أشعرته بالانقطاع عن جذوره وعشيرته ، وعمقت إحساسه بالغربة .

عاد إلى القرية ليشعر مرة أخرى بالدفء والأمان ، وظنَّ أن ما قضاه في أوروبا مجرد مرحلة زمنية وستنتهي آثارها ، لكنه بتطور السّرد يشعر بأثرها المتعمق داخله ، كما هو داخل (مصطفى سعيد) الذي دمرته الحضارة الغربية وحطمته .

مصطفى سعيد ذلك الشخص الذي أثار فضول الراوي منذ قدومه للقرية ، وفي إحدى المرات كان الراوي مدعواً لمجلس شراب عند صديقه (محجوب) ، وكان مصطفى سعيد حاضراً ، ويشارك في الشراب، وفجأة يُذهَل الراوي ، إذ يمسك مصطفى الكأس وينشد شعراً انجليزياً بصوت واضح ونطق سليم ،(10) فيذهب إليه في اليوم التالي ويراه يعمل في الحقل ويحاول أن يعرف منه شيئاً عما حدث بالأمس ولكن دون جدوى، وبعد محاولات من الراوي وشعور مصطفى سعيد باهتمامه المُلح يذهب إليه ويدعوه إلى منزله ، وهناك يطلب منه أن يقسم ألاّ يخبر أحداً بما سيقوله له ، وبدأ يحدثه عن نفسه وأعطاه مجموعة أوراق ليتفحصها ، فإذا بوثيقة ميلاده ، مصطفى سعيد ، من مواليد الخرطوم ، 16 أغسطس عام 1898م ..... الأب متوفى، الأم فاطمة عبد الصادق ، ثم جواز سفره ، الاسم كما هو بوثيقة الميلاد ، والمهنة (طالب) ، تاريخ صدور الجواز عام 1916 م في القاهرة ، وجدد في لندن عام 1926م، وجواز آخر انجليزي فيه أختام كثيرة ، فرنسية وألمانية وصينية ،ودنمركية ، مما زاد من فضوله ودهشته .

بدأ مصطفى سعيد يحدثه عن حياته ، نشأت يتيماً وعشتُ مع أمي يقول : " كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق ..... لم نكن نتحدث كثيراً ..... كنت أحسّ بأنني مختلف " (11) هذا القول يدل على أن والدة مصطفى سعيد لم تكن كأي امرأة تقليدية مليئة بمشاعر الحنان والعاطفة ، بل كانت قوية الشخصية ، وجهها كما يقول قناع يخفي ما تحته ، ساعدته على اتخاذ قراره بالسفر من أجل التعليم ، ولذا نشأ جاداَ يختلف عن بقية الأطفال ، وكأنه يعاني الغربة منذ صباه وهو بين أحضان أمه ، وأحضان وطنه. وهنا يقول : قررت الالتحاق بالمدرسة والتعليم وكان ذلك أول قرار أتخذه بمحض إرادتي ، وكان نقطة تحول في حياتي .

في المدرسة كان لدي مقدرة عجيبة على الحفظ والاستيعاب والفهم ، فكان المعلمون ينظرون إليّ كأنني معجزة، وفي المدرسة الوسطى وبعد ثلاثة أعوام ، قال لي ناظر المدرسة :" هذه البلد لا تتسع لذهنك ، فسافر"(12).

ومن هنا بدأت رحلة الغربة لدى مصطفى سعيد بطل هذه الرواية الذي انتقل إلى القاهرة في منحة دراسية من قبل الحكومة ، وهناك يلتقي بعائلة (المستر روبنسون وزوجته) المستشرق الذي عشق الشّرق ، وأتقن العربية ، أما زوجته التي فأحبت مصطفى سعيد كابن لها ، فطوقته بذراعيها ، وقبلته فشعر بشهوة لم يشعر بها من قبل ، (مسز روبنسون) عاطفتها اتجاهه مجرد عاطفة أمومة حقيقية نابعة من شدة حبها للشرق، واستمر هذا الحب نقياً لأن بواعثه إنسانية ، بعكس العلاقات الأخرى التي يقيمها مصطفى سعيد مع العديد من النساء في لندن .

يُرسَل مصطفى سعيد من جديد في بعثة دراسيّة إلى لندن ، حيث تبدأ حياة جديدة مليئة بالتناقضات والصراعات ، تظهر من خلال العلاقات النسائيّة التي تعالجها الرواية ،كما تظهر الصراع الكبير القائم بين حضارتين مختلفتين حضارة الشرق وحضارة الغرب ، بتقنيّة فنيّة عاليّة تعتمد على الوصف الدقيق ، والمقدرة الفنيّة البارعة في نقل الصورة ، من خلال توظيف اللغة ، التي يتأجج الصراع من خلالها "لان الحقيقة في اللغة ليست حقيقة بل متغيرة بوجود متغيرات ، وباختلاف زوايا النظر ، ومواقع المتكلم تبعاً لاختلاف موازيين القوى الاجتماعيّة والسياسيّة ، والاقتصاديّة ، فاللغة مسكن الكائن "(13) .

أتقن مصطفى سعيد اللّغة الإنجليزية ، وأبحر في الثقافة الغربية بكل مكوناتها ، ولكنه مع كل هذا التمكن كان شيئا ما بداخله يمنعه من الاندماج الكامل مع الحضارة الغربية ، فهو ابن الحضارة العربيّة الشرقيّة ، وابن ذلك الجيل الذي عاش الاستعمار ، وأحسّ بالذل والهوان والاضطهاد ،ولامس كيف يتم نهب خيرات البلاد ، فأصبحت الذات الواعية هي التي تتحرك من الداخل ، فمصطفى سعيد من داخله يمثل صورة الشرق العربي المنكسر التي صورها لنا الطيب الصالح في الرواية بطريقة جنسية شهوانية أرادت أن تستنزف من الغرب قدر المستطاع .

وفي المقابل لابدّ أن تتضح صورة الآخر (الأوروبي) بحضارته المنفتحة، وثورته الصناعية المتقدمة، وتحرر نسائه.

وهنا يتبلور الصراع الحضاري الثقافي مع الأخر من خلال الصراع بين الرجل والمرأة، أو بمعنى آخر من خلال علاقة مصطفى سعيد بالنساء الأوروبيات في لندن .

هكذا رسم الطيب الصالح صورة مصطفى سعيد ، وكأنه خرج من عادات وتقاليد مجتمعه ، وتقمّص شخصية مختلفة تماماً جاءت نتيجة الاستعمار ، فهي صورة ناتجة عن الاستعمار الظالم ، لا أصل لها بالشرق وحضارته ، حتى أنه عبّر عن ذاته في الرواية بأنه ينظر لنفسه على أنه مجرد أكذوبة (14) . وهذه النظرة تؤكد وجود الصراع داخل شخصيته ، فشخصية مصطفى قلقة ومتوترة ، تحاول الانتقام من الآخر ، وتشعر بالغربة الدائمة ولا تحاول الانسجام أو الانصهار مع الحضارة الجديد ، ولا أعلم إن كان السبب هو جذوره الإفريقية ، أم لونه الأسود .

عاش في لندن وتعلم ونجح ..... ولكنه شعر بالضياع وسط حضارة غربية خالية من روحانيات الشرق، فلم يجد إلا المرأة الأوروبية لينشئ معها علاقة ، لكنها علاقة جسدية خالية من التوازن بين الجسد والروح ، وكأنها علاقة استغلال تذكره بعلاقة المُستَعمِر للآخر المُستعمَر .

كانت غرفة مصطفى سعيد في لندن عبارة عن متحف مليء بالآثار الشرقية ، فالبخور والجلود والعاج والند، وريش النعام ..... كل ذلك نسجه ليكون مصيدة لنساء الغرب ، وكأنه ينتقم من الغرب المستبد الظالم بقوله : " جئتكم غازياً في عقر داركم ..... "(15)(فآن همند) فتاة تدرس اللغات الشرقية وتحن إلى المناطق الاستوائية . وجدت في مصطفى ضالتها وكأنه رمزاً للشرق ، ولعبق التاريخ العربي، فتقول : " أحب عرقك ، ورائحتك ، ورائحة الأوراق المتعفنة من غابات افريقيا .... رائحة الأمطار في صحاري بلاد العرب " (16) .فتولد لديه رغبة في الانتقام من الحضارة الأوروبية بشخصها، فهي لم ترَ فيه الإنسانية والرجولة ، بل عشقت رائحة الحضارة الأخرى التي تتطلع إليها بشوق ، فأقام معها علاقة حميمة ، وبعدها وجدوها ميته انتحاراً في شقتها بالغاز ، وتركت رسالة تقول فيها :" مستر سعيد لعنة الله عليك " (17).

أمّا الأخرى (وشيلا غرينود) التي عشقته ولكنها انتحرت أيضاً ، ويليها " ايزابيلا سيمور " التي عشقته واعتبرته إلاها ، بقولها :" اغتلني أيها الغول الإفريقي ، أحرقني في معبدك أيها الإله الأسود " ولكن حبها أيضاً انتهى بالانتحار . والقاضي يرجع انتحارهم إلى أزمة نفسية وانهيار عصبي ويخرج مصطفى سعيد من قفص الاتهام .

ويتعرف على "جين مورس " المرأة التي تزوجها ، ولم تنتحر ، بل قتلها ، لأنها أرادت أن تاخذ كل شيء ولا تعطي شيئاً ، بقي يطاردها ثلاثة أعوام إلى أن قالت له في يوم " كرهت مطاردتك لي ومن جريي أمامك تزوجني " (17) ، فتزوجها . إلا أن هذا الزواج لم يبنَ على أسس سليمة ، فهو يريد الانتقام عن طريق الجنس، وهي تريد نهب خيرات الحضارة الشرقية ، فهذه العلاقة ما هي إلا علاقة نفعيّة ، "جين مورس" المرأة الوحيدة التي أحبها مصطفى سعيد وكرهها في نفس الوقت ، وهي تبادله نفس الشعور وكأننا هنا أمام مفارقة جديدة، مفارقة " الحب والرفض " .

"جين مورسى " المتمنعة في كثير من الأحيان كانت تقايضه في إحدى اللقاءات ، فأشارت إلى زهرية ثمينة موجودة في غرفته وقالت " تعطيني هذه وتأخذني ...." فوافق ، أخذت الزهرية وهشمتها في الأرض ، وداست على شظاياها ، ثم أشارت إلى مخطوط عربي نادر ، وقالت : تعطيني هذا ، فوافق وما كان منها إلا أن مزقته إلى قطع صغيرة ومضغت جزءاً منه وبصقته، وكأنها مضغت كبده ، ثم أشارت إلى مُصلاة من حرير أصفهان أهدته إياها " مسز روبنسون " فكر قليلاً ثم وافق فرمتها في نار المدفأة ، ووقفت مسرورة ، وكأن الطيب الصالح أراد أن يصور لنا من خلال هذا المشهد العلاقة الحقيقية بين الشرق والغرب " فجين مورس" تمثل الغرب بتسلطه ورغبته الجامحة بالحصول على خيرات الشرق وتراثه المتمثل بالزهرية ،والمخطوطة، والمصلاة، فهي بذلك تعبث بكل ما تمسكه يداها، وكأن مصطفى سعيد يعيش معها حالة من المواجهة مع الحضارة الغربية ، فهل يُقبل عليها ويتخلى عن تراثه وأصوله ؟ الذي يمثل الشرق بكل مقتنياته، فلا بدّ له عن نبذ القيم الغربية الفاسدة ، ورفضها والعودة إلى الجذور . فانتهى الأمر بقتله لها ، وكأنه بذلك قتل الوجدان الأوروبي الذي يحتقر الشرق .

نلاحظ أن الطيب الصالح اعتمد في روايته " موسم الهجرة إلى الشمال " على توظيف السّرد المفكك ، حيث الزمن يمكن فكه بسهولة عن الحاضر ، واللغة منقطعة عن الزمن ،وأحداث كثيرة تظهر بشكل مفاجئ وكأنها منفصلة عن الواقع ، وكأنه بذلك يهدف إلى كسر الخط السّردي المتتابع ويشتته ، ويقطعه ويفك وحدته، فيتمرد بذلك على المعايير السّردية التقليدية ، كتمرده على بعض العادات والتقاليد العربية البالية .

كما وظف الطيب الصالح اللغة البسيطة المحكيّة التي تتناسب مع بناء شخصيات الرواية في كل مستوياتها الحياتية ، التي تعني بأدق التفاصيل ، للوصول للمعنى المراد من الخطاب ، فاللغة منتج ينتجه المبدع ، ويتوجه به نحو المتلقي ، ويؤكد على ذلك (رولان بارت) ، بقوله :" اللغة توجيه وإخضاع معمّمان " (19).

وبعد هذه الرحلة المُضنية عاد مصطفى سعيد إلى وطنه ، ليبدأ من هناك ، عاد إلى الأصول ليتحد معها ، ويقيم علاقة إنسانية صحيحة ، فيتزوج (حسنه) وتنجب له ولدين ، كانت علاقتهما علاقة إنسانية صادقة قائمة على الإخلاص والوفاء حتى أنها بعد موته اتخذت قراراً صارماً بعدم الزواج ، وتشتد ثورتها عندما أجبروها على الزواج من (ود الريس) قائلة : " إذا أجبروني على الزواج به فإنني سأقتله وأقتل نفسي " إلاّ أنّ والدها أرغمها على الزواج ، فاختارت الزواج من الراوي المثقف الوحيد في الغربة ، وذهبت الى بيت والده وقالت لأبيه بلسانها : " قولوا له يتزوجني . يا للجرأة وفراغة العين . " نساء آخر زمن " "(20) و هو الوصي على أبنائها من قبل زوجها مصطفى سعيد ، فعلت ذلك لتثبت أنها تستطيع أن تمارس حقها في الاختيار ، إلاّ أن والدها أصرّ على زواجها من (ود الريس) فقتلته وقتلت نفسها لتعبر بذلك عن تمردها على العادات السلبيّة السائدة في المجتمعات الشرقية ، وتكون حسنة بموقفها هذا نقطة البداية لتحرير المرأة الأفريقية من ظلم الرجل الشرقي ، فهي تمثل بدايةالوعي بحقوق المرأة الشرقية.

الخاتمة :

أخيراً نستطيع القول بأن رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " للكاتب السوداني الطيب الصالح ما هي إلا:

- تلخيص للصراع الحضاري المتجذر بين الشرق والغرب ، القائم على الكثير من الاعتبارات الثقافية والدّينيّة والتاريخيّه .

- أمّا فضائي الزمان والمكان في الرواية فكان من الصعب على المتلقى تحديد الأزمنة ، فهي تدور بين الماضي والحاضر والمستقبل لتركز على علاقة التأثر والتأثير . والفضاء المكاني المتحرك بين القرية السودانية البسيطة بكل تفاصيلها القرويّة البدائيّة ، والمدن اللندنية المتحضرة والمتمدنة المبهرة للناظر.

- لغة الحوار اكتسبت طابع البساطة والوضوح ، واستخدام العامية لتعطي للرواية روحاً ممتعة ، أمّا ألفاظ الرواية ففيها الكثير من الألفاظ التي تخدش الحياء الشرقي ، إذ غالى الطيب الصالح في الحديث عن تابوه الجنس وكأنه تقصّد ذلك ، ليظهر قضية الكبت الجنسي في الشرق ،وما يقابلها من حرية المرأة الغربية المتشوقة للشرق.

- رشاقة السرد ، توظيف تيار الوعي وإضافة بعض الصور الفنية الجميلة والمدهشة ، ليبرز من خلالها صراع الحضارات الذي ما فتئ الشغل الشاغل للباحثين والمفكرين منذ القدم حتى عصرنا هذا .

- نهاية حياة بطل الرواية بالعثور على جثته طافية تتلاطم وسط أمواج نهر النيل في ظروف غامضة، لم تعرف ملابساتها ، ما هو إلا تأكيد على استمرارية الصراع الحضاري القائم بين الشرق والغرب ، وبيان أن النيل هو رمز الثبات فالبطل خرج منه وعاد إليه ، وكأن عملية البحث عن الذات تبدأ من الداخل أولاً .

- رائعة الطيب الصالح " موسم الهجرة إلى الشمال " تركز على قضية الارتباط بالأهل ، والارتباط بالمكان الذي يعيد الانسان إلى أصوله الثابتة ، ويكسبه الهوية الواضحة ، التي تمنحه الراحة والأمان وتشعره بالاستقرار ، فيصبح بالرغم من كل الظروف جزءً من التاريخ ، وكأنه يصور لنا وعي المجتمع السوداني الإفريقي في فترة ما بعد الاستعمار ، إذ أصبح أكثر ارتباطاً بالمكان . فالاستعمار مهما طال سيخرج ، وتبقى الأرض والهوية والتاريخ .

قائمة الهوامش :

1- العالي (عبد السلام) محرر ، سبيلا ، دفتر فلسفة ، دار توبقال ، 1994م ، ص 61-62، و جورش طرابيشي ، المراكسية والايديولوجية ، بيروت ، دار الطليعة ، 1971م ، ص887.

2- انظر : لوسيان (غولدمان) ، مقدمات في سوسيولوجيا الرواية ، دمشق ، دار الحوار للنشر ، ط1 ، 1946 ، ص347-364 .

3- باختين ، ميخائيل : الماركسية وفلسفة اللغة ، ترجمة محمد البكري ويمنى العيد ، منشورات دار توبقال ، الدار البيضاء ، 1986م ، ص 23.

4- صالح ، الطيب : موسم الهجرة الى الشمال ، دار العودة ، بيروت ، ط2 ، 1969م ، ص5 .

5- الرواية : ص 5.

6- الرواية : ص6 .

7- الرواية :ص9.

8- الرواية : ص6 .

9- الرواية :ص7.

10-الرواية :ص 17.

11-الرواية : ص23-24.

12-الرواية : ص26.

13-معتصم ، محمد : البلاغة والايديولوجية وأنواع الخطاب ، قراءة في كتاب (البلاغة والايديولوجية : دراسة في أنواع الخطاب النثري عند ابن قطيبة) مجلة فصول ، المجلد (1/26) ، عدد 101 ، 217م ، ص603.

14-الرواية : ص50.

15- الرواية : ص .

16-الرواية : ص .

17-الرواية : ص 37.

18-انظر: قطوس ، بسام ، سيمياء العنوان ، مطبعة البهجة ، عمان ، بدعم من وزارة الثقافة ،2001 م، ص 156-158.

19-بارت ، رولان ، درس السيميولوجيا ، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي ، منشورات دار توبقال ، الدار البيضاء ، 1986م ، ص12.

20- الرواية : ص 124.